أثناء الكلام أن المرء يتكلم عن أشياء موجودة في العالم الواقعي. ويعتقد لوك أن من الخطأ ـ كما ورد في الفقرة الثانية من الاقتباس الأوّل ـ أن نفهم الكلمات أنها تمثّل الأشياء. وهناك حقيقة تبين ذلك هي أن المتكلّم الذي ليس له أدنى تصوّر عن شيء معين لن يأتي بكلمة تدلّ على ذلك الشيء إطلاقاً. وتنحصر وظيفة الكلمات في التعبير عن أفكار المتكلّم؛ ولا يمكن أن تكون «إشارات إرادية يفرضها المرء على الأشياء التي يجهلها».

لم يعتقد لوك أن وظيفة جميع المفردات أن تمثّل الأفكار. وبعض الكلمات مثل تلك التي يسمّيها «الحروف» وظيفتها التعبير عن العلاقة بين الأفكار المختلفة ضمن فكرة كاملة. ويشير لوك باستخدامه «الحروف» إلى تلك الأنواع من المفردات التي نسمّيها حروف الجر أو العطف. وكان هذا التفسير في عهد لوك تقليدياً. وغالباً ما كان يُنظر إلى الحروف أن ليس لها وظيفة دلالية بل وظيفتها تختص بالعلاقة.

وقد بنى لوك على هذه المبادئ الأساسية مفهومه المثالي عن اللغة والتواصل. ولم تكن هذه المبادئ على حالتها تلك حتى عام 1689 أصيلة تماماً. وقد اعتبر كل من فرانسيس بيكن وتوماس هوبز وكثيرون غيرهم أن الكلمات تمثّل الأفكار مقارنة بالأشياء وأدركوا أن التواصل هو نقل الأفكار من ذهن شخص ما إلى آخر. ويمكن القول في الواقع إن مفهوم التواصل عبر النقل الذهني ومفهوم المعنى الذهني المصاحب له مستمدّ في الأصل من أرسطو. ولكن لوك لم يكتب في مقالته عن اللغة بقصد الدفاع عن مثل هذه الآراء الراسخة نسبياً عن طبيعة اللغة والتواصل. ولو اعتقد في الواقع أن اللغة تتفق فعلاً مع الفهم المثالي ما شعر بوجود الحاجة إلى تضمين مناظرة عن اللغة في رسالة عن المعرفة. ولعلّ الذي جذب لوك إلى اللغة ما يسمّيه «النواقص». لأن تلك كانت فكرة لوك بأن اللغة لا تتفق عادةً ـ في الواقع ـ

في الوقت ذاته، كذلك يستحيل فصل الصوت عن اللغة أو الفكر عن الصوت. وإذا فصلنا الاثنين لأغراض نظرية سندخل في علم النفس البحت (سيكولوجي) أو علم الصوت البحت وليس علم اللغة.

وهكذا يعمل علم اللغة على هذا الهامش حيث يلتقي الصوت بالفكر. وإن التماسّ بينهما يولّد صيغة وليست مادّة.

(دروس في علم اللغة العام: ص 155 ـ 157)

تمثّل هذه الاستعارة الرائعة ـ المأخوذة من كتاب سوسير «دروس في علم اللغة العام» ـ الذي نُشر بعيْد وفاته ـ بداية لما أصبح يعرف فيما بعد بـ«الثورة الكوبرنيكية» في الفكر اللغوي الغربي. وهذا المصطلح «الكوبرنيكية» مناسب جداً. لأن كوبرنيكوس[1] ادّعى أن الأرض تدور حول الشمس بدلاً من أن الشمس تدور حول الأرض، كذلك سوسير يدّعي شيئاً مشابهاً في مجال اللغة. وكانت نظريّته أن اللغات هي الأدوات التي تمكّن البشر من تحقيق فهم منطقي للعالم الذي يعيشون فيه. وبدلاً من النظر إلى المفردات أنها مجرّد ملحقات لفهمنا للحقيقة، رأى سوسير أن فهمنا للواقع يعتمد أساساً على استعمالنا ـ للأغراض الاجتماعية ـ الإشارات اللفظية التي تشكّل اللغة التي نستعملها. والمفردات ليست هامشية ولكنها ـ على عكس ذلك ـ مركزية لحياة الإنسان. إذ إن الوجود الإنساني ـ تعريفاً ـ وجود محدّد لغوياً.

وينطلق ادّعاء سوسير أبعد من النظرة التقليدية إلى اللغة كونها الأسلوب الشمولي للتواصل الإنساني. كما أنه أبعد من نظرة لوك للكلمات كونها إشارات تمثّل الأفكار. وقد اتّفق الكثيرون من الفلاسفة على أن المنطق (الفعل) البشري يصبح من غير اللغة مجرّداً من أداة رئيسة للتعبير. ولكن نظرية سوسير تنطلق إلى أبعد وأعمق من ذلك. إن استحالة قطع الورقة من

---

[1] كوبرنيكوس: الفلكي البولندي (1543 -1473) القائل أن الأ